من حكم الصلاة والوضوء والغسل التي ذكرها ابن القيم في كتابه شفاء العليل

خالد بن محمد بن عبد العزيز اليحيا

شبكة الألوكة
www.alukah.net

,

مِنْ حِكَمِ الصلاةِ والوضوءِ والغُسلِ التي ذكرها ابن القيم في كتابه شفاء العليل

أعده

خالد بن محمد بن عبد العزيز اليحيا

النشرة الأولى

ربيع الأول/١٤٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله وسلم على عبده ومصطفاه، أما بعد:

فهذه بعضُ حِكَمِ وأسرارِ وغاياتِ الصلاة والوضوء والغُسل التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (٢/ ٢٢٠) نقلتُها بلفظها سوى تصرفٍ يسيرٍ، وبالله التوفيق.

قال رحمه الله: ... اشتملتْ الصلاة على حِكَمٍ باهرةٍ، ومصالحَ باطنةٍ وظاهرةٍ، ومنافعَ متصلةٍ بالقلب والروح والبدن والقُوى، التي لو اجتمع حكماءُ العالم قاطبةً، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لَما أحاطوا بتفاصيل حِكَمها وأسرارها وغاياتها المحمودة، بل انقطعوا كلُّهم دون أسرار الفاتحة وما فيها من المعارف الإلهية، والحِكَم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء على الله تعالى بأصول أسمائه وصفاته، وذِكْرِ أقسام الخليقة، باعتبار غاياتهم ووسائلهم.

وما في مقدماتها وشروطها من الحِكَم العجيبة: من تطهير الأعضاء والثياب والمكان، وأخْذ الزينة، واستقبال بيته الذي جعله إمامًا للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمةٍ جامعةٍ لمعاني العبودية، دالّةٍ على أصول الثناء وفروعه، مُخْرِجةٍ من القلب الالتفاتَ إلى ما سواه، والإقبال على غيره.

فيقوم بقلبه الوقوفُ بين يدي عظيمٍ جليلٍ كبيرٍ، أكبرُ من كل شيءٍ، وأجلّ من كل شيء، وأعظمُ من كل شيءٍ، تلاشتْ في كبريائه السماوات وما أظلّتْ، والأرض وما أَقلّتْ، والعوالم كلُّها، عَنَتْ له الوجوه، وخضعتْ له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، قاهرٌ فوق عباده، ناظرٌ إليهم، عالِمٌ بما تُكِنّ صدورهم، يسمع كلامَهم، ويرى مكانَهم، ولا تخفى عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه، وتعالى جدّه، وتفرُّدِه بالإلهية.

ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يُثْنَى عليه به من حمده وذِكْر ربوبيته للعالَم، وإحسانه إليهم، ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه مَلِكٌ سواه، حين يجمع الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، ويَدينُهم بأعمالهم.

ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيدِ ربوبيته استعانةً به، وتوحيدِ إلهيته عبوديةً له.

ثم سؤاله أفضل مسؤول، وأجل مطلوبٍ على الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم الذي نَصَبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطًا موصلًا لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصّهم بنعمته بأنْ عرَّفهم الحق، وجعلهم مُتّبعِين له، دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمّنت تعريفَ الربّ، والطريقَ الموصل إليه، والغايةَ بعد الوصول.

وتضمّنت الثناءَ والدعاءَ، وأشرفَ الغايات وهي العبودية، وأقربَ الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدِّمًا فيها الغاية على الوسيلة، والمعبود المستعان على الفعل؛ إيذانًا بالاختصاص، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمّنت ذِكْرَ الإلهية والربوبية والرحمة، فيُثْنَى عليه ويُعبد بإلهيته، ويَخْلق ويَرْزق، ويميت ويحيي، ويدبر الملك، ويضلّ من يستحق الإضلال، ويغضب على من يستحق الغضب؛ بربوبيته وحكمته، ويُنْعِم ويَرْحم، ويجود ويعفو ويغفر، ويهدي

ويتوب؛ برحمته.

فلله؛ كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد وحقائق الإيمان.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام ربّ العالمين، فيحلّ به في ما شاء من روضاتٍ مُونِقاتٍ، وحدائق مُعْجِباتٍ، زاهيةٌ أزهارُها، مُونِقةٌ ثمارُها، قد ذُلِّلت قطوفها تذليلًا، وسُهِّلت لمتناولها تسهيلًا، فهو يجتني من تلك الثمار خيرًا يُؤمر به، وشرًّا يُنهى عنه، وحِكمةً وموعظةً، وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وتقريرًا لحق، ودحضًا لباطل، وإزالةً لشبهة، وجوابًا عن مسألةٍ، وإيضاحًا لمشكِل، وترغيبًا في أسبابِ فلاحٍ وسعادةٍ، وتحذيرًا من أسبابِ خسرانٍ وشقاوةٍ، ودعوة إلى هدى، ورَدٍّ عن رَدَى، فينزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأي نعيمٍ، وقرّة عينٍ، ولذة قلبٍ، وابتهاجٍ وسرورٍ؛ لا يحصل له في هذه المناجاة، والربّ تعالى يستمع لكلامه جاريًا على لسان عبده، ويقول: «حَمِدني عبدي، أثنى عليَّ عبدي، مجَّدَني عبدي».

ثم يعود إلى تكبير ربّه عز وجل، فيجدد به عهد التذكرة، كونَهُ أكبرُ من كل شيءٍ بحق عبوديته، وما ينبغي أن يُعامَل به.

ثم يركع حانيًا له ظهره؛ خضوعًا لعظمته، وتذلُّلًا لعزّته، واستكانةً لجبروته، مسبّحًا له بذكر اسمه العظيم، فنَزَّهَ عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعَه، وقابَلَ تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامنَ وطأطأ رأسَه، وطَوى ظهره، وربُّه فوقَه يشاهدُه، ويرى خضوعَه وذلّه، ويسمع كلامه، فهو ركنُ تعظيمٍ وإجلالٍ، كما قال صلى الله عليه وسلم: «أما الركوع فعظّموا فيه الرب».

ثم عاد إلى حاله من القيام حامدًا لربّه، مثنيًا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمّها، مثنيًا عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفًا بعبوديته، شاهدًا له بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحابَ الجُدُودِ والأموالِ والحظوظِ جُدُودُهم عنه ولو عظمتْ.

ثم يعود إلى تكبيره، ويخرّ له ساجدًا على أشرف ما فيه وهو الوجه، فيعفِّره في التراب ذُلًّا بين يديه ومسكنةً وانكسارًا، وقد أخذ كل عضو من البدن حظَّه من هذا الخضوع، حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع، ونُدِبَ له أن يسجد معه ثيابُه وشعرُه فلا يكفُّه، وأن لا يكون بعضُه محمولًا على بعضٍ، وأن يباشرَ التراب بجبهته، وينالَ ثِقْلُ وجهِهِ المصَلَّى، ويكون رأسُه أسفلَ ما فيه؛ تكميلًا للخضوع والتذلل لمن له العزّ كلُّه والعظمة كلُّها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خُلِق إلى أن يموت لما أدّى حق ربّه عليه.

ثم أُمِرَ أن يسبّح ربَّه الأعلى، فيذكر علوَّه سبحانه في حال سفوله هو، وينزّهَه عن مثل هذه الحال، وأنّ من هو فوقَ كل شيءٍ، وعالٍ على كل شيءٍ يُنَزَّه عن السفول بكل معنًى، بل هو الأعلى بكل معنًى من معاني العلو.

ولما كان هذا غاية ذلّ العبد وخضوعه وانكساره؛ كان أقرب ما يكون الربّ منه في هذه الحال، فأُمِر أن يجتهد في الدعاء؛ لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}.

وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له، فينتقل من خضوع إلى خضوع أكملَ وأتمَّ منه، وأرفعَ شأنًا.

وفُصِل بينهما بركنٍ مقصودٍ في نفسه، يجتهدُ فيه في الحمد والثناء والتمجيد، وجُعِل بين خضوعين: خضوعٍ قبله، وخضوعٍ بعده، وجُعِل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جُعِل خضوع الركوع بعد ذلك فتأملْ هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقّل في مراتب العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء على الربّ بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده إلى منزلة خضوعه وتذلّله لمن له هذا الثناء، ويستصحب في مقام خضوعه ثناءً يناسب ذلك المقام، ويليق به، فيذكر عظمةَ الرب في حال خضوعه، وعلوّه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن شُرِع في أشرف أحوال الإنسان، وهي هيئة القيام التي قد انتصب فيها قائمًا على أحسن هيئةٍ، ولما كان أفضلُ أركانها الفعلية السجود شُرِع فيها بوصف التكرار، وجُعِل خاتمة الركعة وغايتَها التي انتهت إليها، فطابق افتتاحُ الركعة بالقرآن واختتامُها بالسجود أولَ سورةٍ افْتُتِح بها الوحي، فإنها بُدِئت بالقراءة، وخُتِمت بالسجود.

وشُرِع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جِلسة العبيد، ويسأل ربّه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه ويهديه ويعافيه، وهذه الدعوات تجمع له خير دُنياه وآخرتَه.

ثم شُرِع له تكرارُ هذه الركعة مرةً بعد مرةٍ، كما شُرِع تكرارُ الأذكار والدعوات مرة بعد مرة؛ ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ داؤُهُ نصيبَهُ وافرًا من الدواء ليقاومه؛ فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من الغذاء لقمةً أو لقمتين كان غَناؤها عنه وسدُّها من جوعِه يسيرًا جدًّا، وكذلك المرضُ الذي يحتاج إلى قَدرٍ معينٍ من الدواء، إذا أخذ منه المريض قيراطًا من ذلك لم يَزُل مرضه بالكلية، وأزال بحسبه، فما حصل الغذاءُ أو الشفاءُ للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاتَه شُرِع له أن يقعد قِعْدَة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلّم على مَن جاء بهذا الحظ الجزيل، ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علّم الأمة هذا الخير ودلّهم عليه، ثم شُرِع له أن يسأل حوائجه، ويدعو بما أحب ما دام بين يدي ربّه مقبلًا عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة.

هذا إلى ما تضمنته من الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد منزلةً من منازل السير إلى الله تعالى، ولا مقامًا من مقامات العارفين إلا وهو في ضمن الصلاة.

وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرةٍ من بحرٍ، فكيف يقال: إنها تكليف محضٌ، لم يُشرَع لحكمةٍ ولا لغايةٍ قصَدها الشارع؟!

ثم تأمّل أبواب الشريعة ووسائلَها وغاياتِها، كيف تجدها مشحونةً بالحِكَم المقصودة، والغايات الحميدة التي شُرِعَت لأجلها، التي لولاها لكان الناس كالبهائم، بل أسوأ حالًا. فكم في الطهارة من حِكمةٍ ومنفعةٍ للقلب والبدن، وتفريحٍ للقلب، وتنشيطٍ للجوارح، وتخفيفٍ من أحمالِ ما أوجبته الطبيعة، وإلقاءٍ عن النفس من دَرَنِ المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن.

وفي غُسل الجنابة من زيادة التقوية، والإخلافِ على البدن نظير ما تحلّل منه بالجنابة ما هو من أنفع الأمور.

وتأمّل كون الوضوء في الأطراف التي هي محل الكسب والعمل، فجُعِل في الوجه الذي فيه السمع والبصر والكلام والشم والذوق، وهذه الأبواب هي أبواب المعاصي والذنوبِ كلِّها، فمنها يُدخَل إليها، ثم جُعِل في اليدين وهما طرفاه وجناحاه اللذان بهما يبطش ويأخذ ويعطي، ثم في الرجلين اللتين بهما يمشي ويسعى.

ولما كان غسْلُ الرأس بماءٍ فيه أعظم حرج ومشقة جُعِل مكانه المسح، وجُعِل ذلك مخرجًا للخطايا من هذه المواضع حتى يخرج مع قطر الماء من شعره وبَشَره، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب» رواه مسلم، وفي صحيح مسلم أيضًا عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضّأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه حتى تخرج من تحت أظفاره» فهذا من أجلّ حِكَم الوضوء وفوائده.

ولو لم يكن في مصلحته وحكمته إلا أنه سِيْماء هذه الأمة وعلامتهم في وجوههم وأطرافهم يوم القيامة بين الأمم ليست لأحد غيرهم، ولو لم يكن فيه من المصلحة والحكمة إلا أن المتوضّئ يطهّر بدنه بالماء، وقلبه بالتوبة؛ ليستعد بذلك للدخول على ربه ومناجاته، والوقوف بين يديه طاهرَ البدن والثوب والقلب، فأيُّ حكمة ورحمة ومصلحة فوق هذا؟!

ولما كانت الشهوة تجري في جميع البدن، حتى إنّ تحت كل شعرةٍ شهوةً؛ سَرَى غُسل الجنابة إلى حيث سرت الشهوة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ تحت كل شعرة جنابة»، فأمر أن يوصِل الماء إلى أصل كل شعرةٍ، فتبرد حرارة الشهوة، فتسكن النفس وتطمئن إلى ذكر الله وتلاوة كلامه، والوقوف بين يديه

ثم لما كان العبد خارج الصلاة قد أسامها في مراتع الشهوات والحظوظ= أُمِر بعبوديةٍ تَجْمعُ جوارحه كلّها على ربه، وتأخذُ بحظّها من عبوديته، فيسلّم قلبه وبدنه وجوارحه وحواسّه وقواه لربّه عز وجلّ، واقفًا بين يديه، مُقبِلًا بكلِّه عليه، معرضًا عمّا سواه، متنصِّلًا إليه من إعراضه عنه، وجنايته على حقّه.

ولما كان هذا طبعه ودأبه أُمِر أن يجدّد هذا الرجوع إليه والإقبال عليه وقتًا بعد وقت؛ لئلا يطول عليه الأمد فينسى ربَّه، وينقطع عنه بالكلية، فكانت الصلاة من أعظم نعم الله عليه، وأفضل هداياه التي ساقها إليه. والله المستعان.